القدس في يوميات خليل السكاكيني

أ.د. أحمد حسن حامد
أستاذ العلوم اللغوية في جامعة النجاح الوطنية
رئيس المجمع اللغوي الفلسطيني (بيت المقدس)

ملخص البحث

تناول هذا البحث –وبشئ من التفصيل– القدس في يوميات خليل السكاكيني، فعرض نبذة من حياة الكاتب وأخرى من تعريف اليوميات والتفرقة ما بينها وبين الأيام والمذكرات، ثم تعمق البحث في النشاط التربوي والثقافي في القدس فأشار إلى أهم المدارس التي أنشئت في القدس في النصف الاول من القرن الماضي, كما ابرز ما أظهرته يوميات السكاكيني من حديث عن الصحف والمجلات والمطابع التي أنشأها رجالات القدس بغية تأسيس نهضة فكرية حديثة في فلسطين, وعرج البحث كذلك على الجمعيات والنوادي التي انشئت في القدس مظهرا دورها في خدمة المجتمع المقدسي, يضاف الى ذلك ما جاء في البحث من حديث عن العلاقات الإجتماعية العامة والخاصة بين أفراد المجتمع المقدسي.

وخُتم البحث بالحديث عن الظروف السياسية التي ألمت بفلسطين كما أوضحتها اليوميات وبخاصة ما جاء عن وعد بلفور, وأطماع الصهيونية في القدس وفلسطين, ونكبة 1948 وما أصاب الناس فيها من ويلات, وأخيراً تحدث البحث عن الحربين العظميين وانعكاسهما على الحياة في فلسطين والقدس. وانتهى البحث بضرورة الاهتمام بيوميات السكاكيني بوصفها من أهم المراجع التاريخية للحياة قي مدينة القدس.

تمهيد :

يشتمل هذا البحث على عدة محاور رئيسية هي:

1. نبذة من حياة السكاكيني بوصفه علماُ من أعلام القدس.
2. تعريف بيوميات السكاكيني.
3. النشاط التربوي والثقافي في القدس.
4. الحياة الإجتماعية في القدس.
5. الحياة السياسية في القدس.

نبذة عن حياة السكاكيني:

ولد السكاكيني في مدينة القدس سنة 1878, وتلقى علومه الأولية في مدرسة الروم الأرثوذكسية, ثم في مدرسة (صهيون) البروتستانتسة التي كانت تدعى بمدرسة الشبان, وكان أشهر أساتذته فيها هو نخلة زريق أحد أركان النهضة الحديثة في فلسطين.

امتاز السكاكيني في طفولته بميزات تعد بداية لسلوكه العام الذي سار عليه في حياته علاوة على ولعه الشديد بالصيد[1].

بدأ السكاكيني حياته فقيراُ, مما اضطره إلى أن يسافر إلى أمريكا من أجل العمل, غير أن الحظ لم يحالفه فعاد إلى القدس يترقب فرصة أخرى ربما تلوح فيعمل ليعيش وليعيل أسرته. وفي سنة 1908 وحين أعلن الدستور العثماني توسم الناس

فيه خيراً وانفراجا؛ إذ استطاع أن ينشئ مدرسة ليلية تدر عليه بعض المال يكفي لبعض ما يحتاج إليه هو وأسرته, ثم تزوج السكاكيني من سلطانه التي أحبها كثيراُ فأنجب منها ولداً وابنتين غير أن حياته بدأت تسوء مرة أخرى إذ قبض عليه الأتراك وسجن في دمشق, وعانى في السجن ظروفاً قاسية غير أن ذلك كله بما فيه من مرارة وألم كان يتضاءل أمام زوجته سلطانه مبعث أمله ونشاطه, وسر هناءته ومعنى حياته.

استأنف السكاكيني نشاطه في الحركة الوطنية سنة 1922؛ إذ اشترك في المؤتمر الفلسطيني الذي عقد في مدينة نابلس سنة1924[(2)], غير أن حياته بدأت تسوء للمرة الثالثة؛ إذ أخذ الفقر يطرق بابه من جديد, وفي هذه الأثناء كان يتردد على قهوة في باب الخليل بالقدس سماها "قهوة الصعاليك"؛ إذ كان يجتمع فيها بكثير من رجال الأدب وغيرهم [(3)].

وعين السكاكيني قي سنة 1926 مفتشاً في معارف فلسطين. قال بتاريخ 16 سبتمبر1926 "سيكون الغد آخر عهدي بعصر البطالة, وأنه لو تعلم جميل ستقفل غداً قهوة الصعاليك ستقوص مجالسنا التي كنا نجتمع فيها كأنجم الثريا, سيسأل الإخوان فلا يجدونني, فالوداع ياعصر البطالة"[(4)].

وفي أخريات حياته ألمت بالسكاكيني ثلاث مصائب كبرى طبعتها بالحزن والكآبة والتذمر من الحياة؛ أما الأولى فهي وفاة رفيقة حياته سلطانة إذ لم يجد – كما يقول– للحياة بعدها طعماً" فقد طارت نفسه هلعاً, واضطرم فؤاده حسرة وفزعاً, وتلظت في جنبات صدره نيران لم تخمد حتى قضى هو نفسه"[(5)] والثانية النكبة التي ألمت بوطنه فأودت ببيته الجميل في حي القطمون في القدس.

ترك هذا كله وسافر إلى مصر حيث سكن في دار صغيرة سبق أن سكنها قبله رائدان من رواد النهضة الأدبية الحديثة في العالم العربي هما الشيخ سلامة حجازي والشاعر خليل مطران[6].

وأما الثالثة فكانت وفاة وحيده (سريّ) سنة 1953 فكانت الفاجعة التي قضت على البقية الباقية من عمره؛ إذ لم يعش بعده سوى ثلاثة أشهر فتوفي في الثالث من أغسطس (آب) 1953[7].

ويشار إلى أن السكاكيني شغل رئيساً للمجلس الوطني الفلسطيني الذي عقد في (غزة) 1948 كما كان عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية المصري الذي ألقى فيه سلسلة من المحاضرات في اللغة والأدب.

ترك السكاكيني مجموعة لا بأس عليها من المؤلفات في التربية واللغة والأدب[8] ويأتي في مقدمتها كتابه المشهور المسمّى بالقراءة الجديدة, ثم كتابه اليوميات أو (كذا أنا يا دنيا) كما سمته ابنته هالة.

وكنت قد زرت ابنتيهما في بيتهما في مدينة رام الله في أوائل الثمانينات ورأيت بعض آثاره المتبقية التي احتفظت بها ابنتاه هالة ودمية.

2- يوميات السكاكيني

لابد لنا قبل أن نتحدث عن يوميات خليل السكاكيني من أن نشير إلى مفهوم (اليومية) في اللغة ثم نعرج إلى التفرقة بينها وبين (المذكرة)؛ وبداية نقول إن اليوميات تختلف عن الأيام, فاليوم كما ورد في لسان العرب له عدة معان؛ فهو يعني مدة زمنية مقدارها من طلوع الشمس إلى غروبها ويجمع على (أيام) جمع

تكسير، ويعنى بهذا الجمع وقائع العرب فهم قد خصوا الأيام دون الليالي لأن حروب العرب كانت نهاراً, وإذا كانت ليلاً ذكروها نحو قول الشاعر[9]

ليلة العُرقوب، حتى غامرَتْ جعفرَ يُدْعى ورهطَ ابن شَكل

وتعني الأيام كذلك النعم نحو قولهم: أيام الله؛ أي نعمه قال تعالى: "وذكرهم بأيام الله"[10] غير أن اليومية وإن كانت تلتقي مع الأيام في الجذر التصريفي إلا أنها لا تعني (النعمة) ولا تختص بالنهار دون الليل وإنما هي تشمل في دلالتها الليل والنهار وبعبارة أخرى فإن (اليومية) بما كان يدون ليلاً ونهاراً.

وردت اليومية على جمع المؤنث السالم فجمعت على (يوميات) دون غيره. وتختلف اليومية عن المذكرة بالجذر التصريفي وفي بعض الدلالة؛ إذ جاء في لسان العرب تحت مادة (ذكر) معاني متعددة لم تلتق مع معنى (الأيام), وأظهر معنى ورد لمادة (ذكر) هو الحفظ للشئ, والاستذكار: الدراسة للحفظ[11] وربما كانت هذه الدلالة نقطة الالتقاء مع اليومية دون اليوم, إذ إن الهدف مما يدون في اليومية هو الحفظ ليستذكر فيما بعد. ولئن كان هذا أمراً استنتاجياً إلا أنه ربما هو الذي حدا ببعض الأدباء إلى تعريف اليوميات بأنها مذكرات تماماً كما فعل اسحق الحسيني حين عرف يوميات السكاكيني بأنها "مذكرات يومية دون فيها الأدوار التي مرّ بها والأحداث التي أثرت في مجريات حياته, وآراءه في السياسة والأدب والاجتماع والتربية, فهو سيرة عصامي عمر زهاء خمس وسبعين سنة, مكافحاً في سبيل العيش ... وهو من ناحية ثانية تاريخ للزمن الذي عاش فيه, وعرض مفصل دقيق للحركات السياسية التي تعاقبت على البلاد منذ الحكم العثماني وهو من ناحية ثالثة مجلى نظرات أصيلة في شؤون الحياة العامة ".[12]

ويبدو ان مفهوم اليومية قد تطور ليصبح فناً من فنون النثر العربي الحديث يعالج قضية ما من قضايا الفكر سياسية أو اجتماعية أو أدبية أو ثقافية ... إلخ، وتلتزم قواعد معينة شأنها شأن فنون النثر الأدبي الحديث الأخرى.

ومن هذا المنطلق كان السكاكيني يدون ما يحدث ويبدي رأيه فيه. بحيث تجمعت لديه آراء كثيرة في السياسة والأدب واللغة والتاريخ والاجتماع والفلسفة تركها جميعاً في مكتبته ثم جاءت كريمته هالة فجمعت هذه المادة الضخمة ورتبتها ونشرتها في كتاب و سمته بعنوان (كذا أنا يا دنيا) وهي عبارة من بيت شعري للمتنبي يقول فيه:

كذا أنا يا دُنيا إذا شئتِ فاذهبي   ويا نَفْسُ زِيدي في كرائِهها قُدما

ولذلك اشتهرت ما نشرته (هالة) في هذا المجال مرة (باليوميات) وأخرى بـِ (كذا أنا يا دنيا) والمحتوى واحد. وأشير هنا إلى أن ما نشر جاء مدوّنا بعد سنة 1908, كما أن هناك جزءاً آخر محذوفاً تمتد مدته الزمانية من (1922–1931), غير أن (هالة) لخصت ما حفظته ذاكرتها من أحداث قام بها والدها في هذه الفترة[13].

ومهما يكن فإن يوميات السكاكيني تمثل قصة صراع إنسان مع الحياة, وهي أشبه بصحيفة يومية, دون فيها السكاكيني ما مرت به فلسطين عامة والقدس خاصة من تطورات سياسية واجتماعية وفكرية يضاف إليها رأي محررها فتبدو في صورة موثقة ومنقحة. وعلاوة على ذلك كله فإننا نجزم بأن يوميات السكاكيني تعد ترجمة ذاتية لأديب ومرب ومؤرخ وإنسان قصر جل حياته على خدمة وطنه في شتى المجالات.

وفوق هذا وذاك تعد اليوميات مرجعاً مهماً للحركات السياسية والاجتماعية التي تعاقبت على العالم العربي بعامة وفلسطين بخاصة.

إذا ما سألت السكاكيني لماذا كتبت هذه اليوميات؟ أجاب عن ذلك بما يأتي :

1. قطع الوقت: "أن أجلس وراء طاولتي فأكتب ما يحضر لي أحب إلي من التجول في الشوارع, أو الجلوس في محال القهوة, أو زيارة أناس لا يفهمونني ولا أفهمهم".

2. تدوين حوادثي وتأثراتي في وقتها واستيعاب ما يمر بي من الدروس والعبر.

3. أن تكون يومياتي هذه كتاباً عائلياً أصور لهم أيامي في الغربة يوماً يوماً.

أخذت القدس مدينة السكاكيني ومسقط رأسه مساحة كبيرة من يومياته إذ خصص لها فصلاً كاملاً صور فيه الأنشطة التربوية والثقافية والاجتماعية تصويراً يعد مرجعا دقيقا للباحثين والمؤرخين. ومن هنا فإننا لا بد من الولوج في صلب البحث لنرى أين القدس في يوميات السكاكيني؟، وقبل الإجابة عن هذا السؤال الذي يمثل موضوع البحث من ألفه إلى يائه، أود الإشارة إلى أن السكاكيني أحب القدس حبّاً جمّاً لأنها مسقط رأسه أولا، ولأن له فيها محبوبة اجلها وقدرها، وهي سلطانة، إذ إن عشقه سلطانه من عشق القدس والعكس صحيح، إذ أعلن وبكل صراحة انه لن يهاجر من القدس ولو تركها الناس جميعا[14]، ورجل هذه محبته لمدينته فلا بد أن تكون غاية في الدقة والمصداقية والتوثيق، وفي صدد هذا التصور سنقصر الحديث عن القدس في يوميات السكاكيني من الزوايا الآتية:

1. النشاط الثقافي والتربوي في مدينة القدس

أ. نشأة المدارس وأحوالها:

أرخت يوميات السكاكيني منذ بداية القرن الماضي للحركة التربوية في فلسطين عامة والقدس خاصة غير أنها لم تظهر ملامح الحركة التربوية قبل عام 1908، ويبدو أن الأمر يعود إلى أن الأتراك لم يعنوا باللغة العربية ولا بالثقافة الفكرية في هذه الفترة، لأن أوضاعهم السياسية لم تكن لتساعدهم على ذلك، ولأن الاتجاه نحو تتريك المنطقة العربية اخذ يتزايد، وبذلك لم تهتم السلطات التركية الحاكمة بإنشاء المدارس، وتشير يوميات السكاكيني إلى أن إعلان الدستور عام 1908 أعطى دفعة أو أملا في تحسن الظروف في فلسطين والقدس على وجه الخصوص فأنشئت بعض الجمعيات الثقافية غير أنها لم تعش طويلا، إذ كانت ما تلبث أن تبدأ حتى تموت بموت مؤسسيها ومن ثم لم يستطع بعضها الاستمرار في الحياة بسبب الظروف السياسية التي آلت إليها الدولة التركية، فعلى سبيل المثال (جمعية الآداب الزاهرة) التي أسسها داوود صيداوي عام 1898 بالاشتراك مع عيسى العيسى، وفرج فرج الله، وافتيم مشبك، وشبلي الجمل، وجميل الخالدي، ونخلة زريق، هذه الجمعية وان دلت على حرص رجالات التربية على النهضة التربوية في القدس إلا أنها لم تدم طويلا [15].

لعب صاحب اليوميات دورا كبيرا في عملية إصلاح التربية في القدس فحين عاد من أمريكا عام 1908 انشأ مدرسة ليلية في القدس، كما انشأ في 1909 بالاشتراك مع علي جار الله، وجميل الخالدي، وافتيم مشبك مدرسة سماها(المدرسة الدستورية) [16] نسبة إلى الدستور العثماني الذي أصدره السلطان عبد الحميد، وتظهر اليوميات نشاط رجالات التربية وفي مقدمتهم خليل السكاكيني، إذ لا يفتأ

السكاكيني يستغل كل فرصة من شانها بث رغبته الملحة في نهضة المدارس في القدس، والمدارس التي يراها السكاكيني ويدعو إليها يجب أن تتوافر فيها الشروط التالية [17]:

1. أن تكون مبنية على أسس حديثة؛ وذلك عن طريق الإفادة من مناهج المدارس الأجنبية المنتشرة في القدس.

2. تأليف جمعية لإلقاء الخطب في أصول التعليم والتربية الحديثة.

3. استنهاض همة مسؤولي المعارف الخصوصي والعمومي للاهتمام بأمر التعليم، وتوخي المنفعة العامة على المنفعة الخاصة، ومن هنا سجلت يوميات السكاكيني سمات المدارس المطلوب إنشاؤها في القدس خاصة فقال: " المدارس التي نحتاج إليها مثل المدارس في أوروبا" بساتين أطفال، مدارس ابتدائية، مدارس ثانوية، بشرط أن تكون مدارس حقيقية لا بالاسم فقط كما كان عندنا قبل الحرب، وان نختار لها المعلمين الاكفياء المقتدرين، لا أن تكون المدارس مأوى عجزة خاملين كما كانت في عهد تركيا، وان يكون التعليم فيها مجردا من كل تأثير ديني أو جنسي أو سياسي[18].

وأسس في القدس عام 1938 بالاشتراك مع إبراهيم شحادة الخوري، ولبيب غلمية، وشكري حرامي (كلية النهضة) [19]، وعين السكاكيني مديرا لها، إذ أدارها على أساس من إعزاز التلميذ لا إذلاله، وكانت القدس على تواصل مستمر مع بقية المدن الفلسطينية الأخرى وبخاصة مدينة يافا[20]. ثم عين السكاكيني بعد ذلك مديرا لدار المعلمين في القدس، وكان يديرها بأسلوب لا يرتبط بالقانون المدرسي[21].

والمدارس التي أنشأت في القدس في النصف الأول من القرن العشرين يمكن أن

نقسمها إلى قسمين:

1. مدارس حكومية

2. مدارس خاصة (تبشيرية).

وكانت الثانية تلقى من العناية والتطوير أكثر من الأولى، ولأن المدارس التبشيرية كان هدفها الأساسي هدفا عقديا تبشيريا ومن ثم كانت تتلقى الدعم من جهات خاصة تابعة لهذه الدولة أو تلك من الدول التي تنتمي إليها هذه المدارس، واخص بالذكر المدارس الألمانية، والمدارس الروسية يضاف إلى ذلك المدارس التي يدعمها اليهود، والى جانب ذلك كله فإن اليهود كانوا يعملون ليل نهار على إنشاء جامعة لهم لكي يثبتوا أقدامهم في فلسطين عامة وفي القدس خاصة.

وكانت المدارس التبشيرية في القدس على درجة عالية من التطور، ولذلك كان صاحب اليوميات يدعو بصراحة إلى زيارتها بغية الإفادة من أساليبها ومناهجها[22].

2. ظاهرة الدروس الخصوصية:

لقد انتشرت ظاهرة الدروس الخصوصية بشكل لافت للنظر، وتعزى هذه الظاهرة إلى:

أ. قلة المدارس الحكومية
ب. ضعف التعليم في المدارس
ج. قلة الرواتب الحكومية
د. كثرة الأجانب الذين كانوا يريدون التعلم وخاصة اللغة العربية.

وإذا ما قرأنا يوميات السكاكيني جيدا فإننا نلاحظ أن الرجل كان نشيطا في إعطاء

الدروس الخصوصية وبخاصة لبعض الشخصيات الأجنبيــة المــسؤولة، ذلــك أن السكاكيني كانت له صلات قوية مع زعماء البلاد أجانب وعــرب وحتــى بعــض اليهود كالشاعر (ألترليفين)[23].

وهناك يوميات كثيرة كتبها السكاكيني بتواريخ متعددة تبين ما قام بــه مــن دروس خصوصية من ذلك ما كتبه بتاريخ 7 آذار 1919 فقال:" خرجت الساعة التاســعة فعلّمت (مستر أشبي)، ثم ذهبت فعلمت رئيس الجزاء من الساعة العاشرة والنصف إلى الحادية عشر والنصف، ثم ذهبت وعلمت (Capt. Jopling) ومــن هنــاك ذهبت رأسا إلى جبل الزيتون إلى العمارة الألمانية، وكان مؤلفــا مــن الكولونيــل كريتين (Col. Cryekton) واثنين آخرين فعلمتهم لأول مرة[24].

ومن ذلك ما كتبه بتاريخ 14 آذار 1914: "علمت اليوم الخواجا ابــري واليــاس افندي فراجي والدكتور كوربت وامرأته ومس أندرسون ومــس ولــس وكنتــسلير روسيا المسيو انتيبوف، فيكون مقدار دخلي من هذه الدروس خمسة عــشر فرنكــا ونصف"[25]. وتكثر اليوميات التي دونها السكاكيني وتعرض فيهــا إلــى ظــاهرة الدروس الخصوصية سواء أكانت لأبناء القدس أم لشخصيات أجنبية، ويبدو أن هذه الظاهرة أعطت نتاجا جيدا، ذلك أنها ساعدت على القضاء على الأميــة أو علــى الأقل حدت من انتشارها، ولولا تنبه علماء القدس ورجال التربية في ذلك الوقــت إلى استغلال كل فرصة لإعطاء الدروس الخصوصية لازداد تفــشي الأميــة فــي القدس وغيرها، وذلك بسبب الظروف السيئة التي ورثتها القدس من الأتراك وعدم اهتمام الانجليز بالعملية التربوية بالشكل الصحيح، يضاف إلى ذلك كلــه الأطمــاع الصهيونية التي بدأت تظهر في بداية القرن الماضي إذ لم تتــرك أي فرصــة دون استغلالها لتثبيت أقدامها في القدس.

3. الصحف والمجلات والمطابع:

شهدت القدس في الربع الأول من القرن الماضي نشاطا صحفيا لافتا للنظر، ويبدو أن هذا الأمر انسحب على بلاد الشام ومصر، إذ انتشرت فيها مجلات وصحف لها سمعتها في ذلك الوقت ومن أشهرها: المقتطف، والهلال، والسفور، والسياسة، والشورى[26]. وتشير المراجع الحديثة إلى أن النشاط الصحفي ظهر في أواخر القرن التاسع عشر وسار في القرن العشرين بخطى متقطعة بمعنى انه كثر إصدار الصحف والمجلات، ولكن معظمها كان يعيش سنوات قليلة ثم تموت لتظهر بدلا منها صحيفة أخرى أو مجلة بديلة، ولعل أشهر الصحف التي وردت في القدس في أواخر القرن التاسع عشر هي القدس الشريف وجريدة الغزال[27].

وتذكر يوميات السكاكيني بعض المجلات والصحف التي انتشرت في فلسطين في القرن الماضي غير أنها لم تحصِ جميع ما نشر من صحف ومجلات، ويمكن للدارس أن يعود إلى كتاب القدس الشريف للدكتور شوقي شعث ليقف على أسماء الصحف والمجلات التي نشرت في القدس وفي فلسطين عامة حتى عام 1972. ومع هذا وذاك فإننا سنركز على ما دونته اليوميات من مجلات وصحف، إذ ذكرت أن من أوائل المجلات كانت (مجلة الأصمعي) وهي مجلة أدبية اجتماعية اشرف عليها حنا عبد الله العيسى، وكانت تصدر في القدس ويافا مرتين شهريا، وتطبع في مطبعة جورجي حبيب في القدس إلا أن مكتب إدارتها كان في يافا[28].

وقد تأصلت فكرة إنشاء المجلات في ذهن كاتب اليوميات كثيرا، حتى انه كان ينشئ للطلبة في كل مدرسة مجلة يكتب التلاميذ فيها آراءهم، وشكاواهم؛ من ذلك إنشاؤه مجلة سماها (الجوزاء) وهي مجلة نصف شهرية. وتذكر اليوميات أن

جورجي حبيب حنانيا انشأ جريدة سماها (جريدة القدس)، وهي جريـــدة إخباريـــة وأدبية علمية كانت تصدر مرتين في الأسبوع[29].

ومن الصحف التي كانت منتشرة في القدس في الربع الأول من القـــرن الماضـــي (جريدة القدس الشريف) بإشراف الشيخ على الريحاوي، وجريدة (سورية الجنوبية) بإشراف عارف العارف، و(مرآة الشرق) وكانت تصدر في القدس وتأسست عـــام 1919، و(بيت المقدس) التي أصدرها يندلي الياس مشحور عام 1919.

ومما تظهره يوميات السكاكيني كذلك كثرة المطابع، بحيث كان لكل جريدة أو مجلة مطبعتها الخاصة من ذلك المطبعة الخاصة بمجلة الأصمعي، ومطبعـــة جـــورجي حبيب والمطبعة العصرية وغيرها[30]، وكان السكاكيني وغيره من رجالات الأدب والسياسة يترددون إلى المطابع التي كانت تساهم بشكل أو بآخر في محاربة الفقـــر عن طريق تشغيل ذوي الاختصاص في تلك المطابع.

4. العلاقات الاجتماعية في المجتمع المقدسي

يمكن تقسيم العلاقات الاجتماعية في مدينة القدس كما صورتها يوميات الـــسكاكيني إلى ثلاثة أقسام:

1. علاقات عائلية 2. علاقات خاصة 3. علاقات مجتمعية عامة.

ويشمل القسم الأول العلاقات الخاصة بالأفراح والأتراح، إذ كان السكاكيني لا يفتـــأ يكثر من الزيارات إلى أفراد عائلته ما يشكل نموذجا أصيلا لصورة الحياة العائليـــة في المجتمع الفلسطيني عامة والمجتمع المقدسي خاصة، وتأتي أهمية رصـــد هـــذه العلاقات في أنها تعد رصيدا مثمرا للباحثين للتعرف على البيئة العائلية في فلسطين

في النصف الأول من القرن العشرين، إضافة إلى أنها نمط من أنماط صلات القربى التي تدعو إلى تكاتف أبناء العائلة الواحدة؛ كتب السكاكيني في تاريخ 11 أيلول 1908:"استحممت وأفطرت وخرجت فالتقيت بيعقوب ابن خالتي فذهبت معه إلى منزله لأطلعه على ما تم بيني وبين صهره الخواجا جورجي حبيب، فعبأوا لي اركيلة وجلسنا وكنت أتخيل داوود معنا، بعد حديثي أدرنا أحاديث متنوعة مختلفة قص عليّ أخبار خطبته وزواجه وموت عفيف داوود"(31).

ولنستمع إليه في يومية أخرى كتبها يوم الاحد15 تشرين الثاني 1908: "بعد الاستحمام والفطور جاء يعقوب ابن خالتي وخالي جورج وأشيل سيقلي، فلبست وخرجت معهم ثم ذهبت مع أشيل إلى بيت روحي أفندي الخالدي، فأقبل علينا بأنسه ولطفه، وتداولنا أحاديث مختلفة ظهر لي منها انه مطلع على المبادئ العصرية، واقف على أقوال كثيرة لأشهر كتاب فرنسا"(32).

وتكثر مثل هذه اليوميات عند السكاكيني ومنها يستطيع الباحث أن يستجلي موضوعات شتى سياسية وفكرية واجتماعية متنوعة.

2- علاقات خاصة:

ونقصد بذلك الزيارات التي كانت تحدث بين السكاكيني وغيره من رجالات الأدب والفكر، إذ إن كبار المفكرين والساسة من العرب وغيرهم كانوا إذا زاروا القدس عرجوا على بيت السكاكيني، إسعاف النشاشيني، ونخلة زريق وغيرهم من أركان النهضة بل مؤسسي النهضة الفكرية في فلسطين حتى قيل:"من زار القدس ولم يزر بيت السكاكيني فكأنه لم يزرها"، وتنقل اليوميات كذلك أن السكاكيني كثير الاتصال مع رجالات الأدب والسياسة المنفيين من بلادهم. كما انه لم يترك فرصة إلا

استغلها لمقابلة هذا المسؤول أو ذاك من أجل خدمة أمته ورفعة شأنهم، وهذا الانطباع يلحظه قارئ اليوميات على زعماء القدس من مسيحيين ومسلمين ممن نذروا أنفسهم على المحافظة على القدس وتراثها وتقاليدها.

تشير اليوميات كذلك إلى أن رجال الأدب والفكر من المقدسيين كانوا يدركون جيدا الأوضاع الاجتماعية والسياسية السيئة التي أورثها الأتراك إلى الانجليز، كما تشير العلاقات الخاصة إلى التسامح في التعامل مع جميع الطوائف حتى اليهود أنفسهم، إذ كان للسكاكيني علاقات طيبة مع بعض شعرائهم، وان كان اليهود يتربصون الدوائر بسكان القدس من العرب بغية تحقيق مطامعهم الصهيونية في السيطرة عليها.

وتجدر الإشارة إلى أن الهدف من العلاقات الخاصة كان إما للتعليم أو للتباحث في أوضاع المجتمع من ذلك ما كتب في يومية الأحد 4 ايار1919: "زارني قبل الظهر عارف باشا الداوودي وعبد القادر طهبوب ويعقوب ابن خالتي، فجعلنا نتكلم في الأحوال الحاضرة. خطر لي اليوم أن أنشئ مجلة شهرة انشر فيها ما يعن للخاطر الكليل"[33].

وكتب كذلك في يومية الثلاثاء 10 حزيران 1919: "زارني في المساء الحاج أمين الحسيني، وقال: إن قسما من اللجنة الدولية وصل إلى يافا، وقد أعلنت الحكومة اليوم أن البلاد التي انفصلت عن تركيا قد قرر في مؤتمر الصلح أن لا بد لها من الوصاية، قلت: إذا لم يكن بد من الوصاية فليس لنا إلا أن نترك انتداب إحدى الدول للوصاية علينا إلى الأمير فيصل. فقال: هذا ما قررنا"[34].

ومثل هذه اليوميات كثير وبخاصة ما دونه السكاكيني في الربع الأول من القرن العشرين.

3. علاقات مجتمعية عامة:

لعل ما كان يميز المجتمع المقدسي في أوائل القرن العشرين تفشي البطالة والفقر، حتى أن الموظفين أنفسهم لم تكن وظائفهم تكفي لسد عوزهم، ما اضطر بعض الأفراد إلى السفر إلى أمريكا وأوروبا بغية البحث عن عمل يرتزقون من ورائه. وبخاصة في عشرينيات القرن ذاته. ولعل السبب في هذا الفقر يؤول إلى الموروث السيئ الذي ورثه الانجليز من الأتراك، والى الأحوال السياسية المضطربة التي عاشتها المنطقة في تلك الحقبة، ولعل اشتداد أزمة الفقر هي التي دعت السكاكيني ورجال السياسة والأدب إلى إنشاء (حزب الصعاليك)، وهو حزب مموه؛ ظاهره السخرية وباطنه الجدية الداعية إلى إصلاح البلاد، وقد وضع السكاكيني لهذا الحزب فرمانا مكونا من ثمانية عشر مبدأ تعبر بصورة غير مباشرة عن الأوضاع السيئة في البلاد كما تعبر عن أرائهم في الإصلاح.يقول المبدأ الثالث عشر:" طريق الإصلاح في نظر هذا الحزب (التربية والتعليم) وهو يقر أو يصر أن تكون المدارس في يد الأمة، وان لا يوكل الأمر فيها إلا إلى ذوي الاختصاص والإخلاص"[35]، وبالخلاصة نقول إن سوء الحياة المعيشية والفقر المدقع الذي انتشر في المجتمع المقدسي خاصة هو الذي دعا إلى تقوية العلاقات المجتمعية بل هو الذي جعل رجالات الفكر والسياسة يسرعون إلى تدارس تلك الأوضاع، ومما تجدر الإشارة إليه أن القدس شهدت كما تصور يوميات السكاكيني نشاطا ملحوظا في إنشاء الجمعيات والنوادي التي عملت بجانب التربية والتعليم على محاولة القضاء على الجهل والفقر كما عملت على تقوية أواصر الترابط بين أفراد المجتمع

ومن ذلك جمعية الطائفة الأرثوذكسية التي حاول فيها السكاكيني أن يعلي من شانها دون تعصب ديني وأسس السكاكيني كذلك جمعية(الآداب الزاهرة) ثم اشترك بعد ذلك مع جماعة منهم حنا العيسى ونخلة زريق في تأسيس فرع لجمعية الإخاء العربي، ومنذ أول يوم اجتماع لها وعد بأن يبذل قصارى جهده في اتخاذها مجالا واسعا للعمل النافع والخدمة الصادقة[36]، وتأسست في القدس جمعية من المسلمين والمسيحيين أطلق عليها(الجمعية الإسلامية المسيحية) وكان من أعضائها راغب النشاشيني وسعيد الحسيني، ومن المسيحيين يعقوب فراج ونجيب أبو صوان[37]، وكان من أهدافها رفض الصهيونية، والتقسيم، والمهاجرة، والامتيازات[38]. وتعددت الجمعيات في القدس بعد ذلك حتى بلغ عددها حتى نهاية عام 1945 ألفين وثلاثاً وعشرين جمعية وناديا توزعت بين الأدب والثقافة والرياضة[39]، وكان السكاكيني عضوا بارزا في معظم الجمعيات والأندية العربية في القدس، وكانت مجالسه فياضة بالأدب الوطني والروح الوطنية والأماني الوطنية ، وقد دون ذلك كله في رسائل متناثرة في يومياته.

وتذكر زليخا الشهابي أن السكاكيني كان يحيط الاتحاد النسائي في القدس بعونه[40]، ما يدل على أن المجتمع المقدسي لم يهمل المرأة بل أعطاها حقها ولذلك كانت تخضع لما كان يخضع إليه المجتمع من عادات، وتقاليد، وان كانت يوميات السكاكيني لم تظهر بشكل واضح طبيعة المرأة إذ تحدثت عنها بصورة يغلفها العموم، ويستشف من كثير من يوميات السكاكيني أن حظها من التعليم كان ضعيفا لكنه متنامٍ حسب الظروف التي كانت تمر بها البلاد.

4. اليوميات والحالة السياسية في القدس:

لعل ابرز ثلاث ظواهر سياسية حلت بفلسطين عامة وبالقدس خاصة وسجلتها يوميات السكاكيني بصورة واضحة هي دستور سنة 1908، الذي أصدره السلطان عبد الحميد والذي توسم فيه الناس خيرا للبلاد، غير انه لم يدم طويلا بسبب الظروف السياسية المتلاحقة التي أودت بالحكومة التركية. والثانية وعد بلفور عام 1917 الذي تكفل بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين والذي عانى منه الفلسطينيون كثيرا. والثالثة نكبة 1948 التي أدت إلى هزيمة الجيوش العربية والى هجرة أبناء فلسطين إلى الدول العربية المجاورة، ويتبع هذه الأحداث الثلاثة ذات التأثير المباشر على الفلسطينيين حدثان عالميان كان لهما دور بارز في تغيير خريطة العالم وهما: الحرب العالمية الأولى، والحرب العالمية الثانية، وفي ضوء هذه الأحداث وما يتبعها لا بد من الإجابة عن السؤال الأتي وهو، كيف انعكست آثار تلك الأحداث على المجتمع المقدسي خاصة وفلسطين عامة، وهل استطاعت يوميات السكاكيني أن ترصد تلك الآثار؟ ولعل اخطر ما في تلك الآثار ظهور الصهيونية كحركة مناهضة لكل شيء، فقد تنبه السكاكيني عشية الحرب العالمية الأولى كما بعض مثقفي جيله المقدسيين من أمثال روحي الخالدي، ونجيب نصار، وعيسى العيسى وغيرهم إلى أخطار الصهيونية على مستقبل فلسطين وسكانها العرب، وعبر السكاكيني مثلهم عن موقفه المعادي للصهيونية، في مقالاته المنشورة في الصحافة، وفي مجالسه ودروسه التي أعطاها لتلاميذه العرب واليهود[(41)]؛ قال: "إن الحركة الصهيونية وان تكن في اعتبارنا أمراً ثانويا، إلا انه لا يجوز أن نهمل أمرها الآن (1919م). اليهود يحاولون أن يقنعوا الرأي العام في أوروبا أنهم يؤلفون الأكثرية في فلسطين، وأنهم اتفقوا مع زعماء البلاد في كل أمر، وأنهم أصحاب الحق في فلسطين، ولم يزالوا يشيعون الإشاعات المختلفة افتئاتا علينا

ونحن سكوت، فيجب أن نقابل حركتهم بمثلها وبعد أن أخذنا وأعطينا في هذه الأمور الثلاثة، قرّ الرأي أن تعقد جمعيات القدس حفلة شاي في لوكندة مرقس لأعضاء الجمعية العمومية، تدعو إليها عددا كبيرا من أهل القدس تلقى فيها خطب عديدة[42].

ونبهت اليوميات منذ القرن الماضي على أن اليهود لا يأتون إلى القدس وفلسطين لكي يموتوا أو يعيشوا بل من اجل امتلاكها، وحين سأل القنصل الأمريكي صاحب اليوميات بتاريخ 1942/1/14 عن إمكانية التوفيق بين اليهود والعرب جاء جواب الأخير قاطعا: "إن اليهود لا يمكن أن يتفق معهم احد"[43].

وصورت اليوميات بصورة جلية عداء العرب لليهود وللصهيونية عامة يظهر ذلك حين خرج الناس في القدس في الرابع من نيسان عام 1920 لاستقبال أحد المواكب الوافدة إلى مدينة القدس إذ انهارت في أثنائه الحجارة على اليهود فأقفلت المخازن، وارتفع الصياح، وضربت محال اليهود ومخازنهم، ومن كان منهم في الشوارع[44].

حاول سكان القدس إنشاء حزب أطلقوا عليه الحزب الوطني ليخدم المصالح الفلسطينية العليا في فلسطين، وتقف اليوميات بقوة أمام مطامع اليهود والصهيونية ومحاباة الانجليز لهم؛ إذ رد صاحبها على مزاعمهم من أن اليهود لا وطن لهم، وان مجيئهم إلى فلسطين إنما يحصل لاضطهاد العالم لهم، قال السكاكيني:" إذا كنتم بدون وطن خاص لكم فاضطهدكم الناس وجدتم من يشعر معكم ويحزن لحزنكم، وأما إذا كنتم أصحاب وطن، فاضطهدكم الناس فلا تجدون من تأخذه الرأفة بكم لأنهم يقولون حين إذن أن السبب منكم وفيكم، ثم إذا أصررتم على أن يكون لكم وطن خاص فانتم وشانكم، ولكن أتعتدون على أوطان الناس؟ إذا أردتم أن يكون لكم وجود مستقل فتلك همة عالية، ولكن أتبنون وجودكم على أنقاض غيركم؟"[45].

ومع ذلك فقد حاول اليهود أن يقنعوا أوروبا أنهم يؤلفون الأغلبية في فلسطين وكان رجال القدس من الساسة والأدباء يرون أن اكبر خطر على الأمة العربية، الصهيونية والتجزئة ، وفيهما كتب السكاكيني بتاريخ 24 نيسان1914:"اكبر خطر على الأمة العربية: الصهيونية، إذا لم نتحد في مقاومة الصهيونية ذهبت فلسطين من أيدينا، وعرضنا غيرها للخطر...، والخطر الثاني التجزئة، مهما بلغنا من الانحطاط، ومهما اختلفنا في الأخلاق والأذواق والعوائد، فإن تلافي ذلك ميسور إذا اتحدنا، ولكن إذا تجزأت بلادنا وأصبحت كل قطعة من بلدنا في يد دولة، فإننا لا نلبث أن نصبح أمما مختلفة لا تزيدنا الأيام إلا اختلافا[46].

تزخر يوميات السكاكيني بمثل هذه المواقف التي كتب فيها بعد صدور وعد بلفور وتكشير الصهيونية عن أنيابها تجاه القدس وفلسطين، ما تعد بمقتضاها من أهم المراجع التي يرجع إليها الباحثون في تاريخ القضية الفلسطينية منذ أواخر القرن التاسع عشر ونهاية النصف الأول من القرن العشرين.

وأما الحادثة الثالثة الكبرى التي ألمت بالقدس وفلسطين في عهد السكاكيني فهي نكبة عام(1948) وفيها حصلت الطامة الكبرى، إذ هجر الناس بيوتهم وتشتتوا إلى الأقطار العربية المجاورة أملا في العودة إلى ديارهم مرة أخرى، وفي هذه النكبة قسمت القدس إلى قسمين: قسم احتله اليهود والآخر بقي تحت إمرة العرب ثم آل بعد ذلك إلى الأردنيين؛ قال السكاكيني في إحدى يومياته:" تركنا الدار والثياب والأثاث والمكتبة والمؤونة والبيان العظيم الذي لا نجد له مثيلا، والثلاجة الكهربائية[47].

أما الحدثان العالميان اللذان حدثا في النصف الأول من القرن العشرين ورصدتهما يوميات السكاكيني، وكان لهما اثر بشع على العالم بعامة وفلسطين والقدس

بخاصة- فهما الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية؛ كتب السكاكيني في إحدى يومياته يصف أهوال الحرب العالمية الثانية: "لا أسمع أخبار هذه الحرب [العالمية الثانية] الفظيعة إلا تمنيت لو لم اخلق، أو لم أعش إلى اليوم. ماذا تكون الإنسانية حتى تحتمل هذه الويلات...؟ ومهما كانت الأغراض التي يدعي كل فريق انه خاض لأجلها فإنها أحقر من أن تعرض الإنسانية لهذه الويلات"(48).

ومهما يكن فإن هذه الأحداث السياسية عالمية أو محلية تركت أثرها الواضح على شتى مناحي الحياة في فلسطين وفي القدس، ومن ثم يهيب الباحث بالدارسين إلى ضرورة الاهتمام بما ورد في يوميات السكاكيني من تلك المناحي في النصف الأول من القرن العشرين.

ثبت الهوامش والمراجع

1- السكاكيني: ما تيّسر، القدس، المطبعة العصرية، سنة 1943، ج1، ص65
2- جريدة الشورى: العدد24، سنة 1924
3- السكاكيني:كذا أنا يا دنيا، القدس، نشر هالة السكاكيني، 1955، ص392
4- جريدة الشورى: العدد 97، سنة 1926
5- زعيتر، أكرم: خليل السكاكيني في رثاء زوجته، مجلة العربي 1967، عدد105، ص62
6- السكاكيني: كذا أنا يا دنيا، القدس، نشر هالة السكاكيني، 1955، ص392
7- السكاكيني:السابق، ص405
8- حامد، أحمد: السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة، ط2، نابلس، مكتبة خالد بن الوليد1980، ص18-41
9- ابن منظور: جمال الدين، محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت مادة (يوم)
10- سورة إبراهيم: آية 5
11-ابن منظور: لسان العرب (ذكر)
12- الحسيني، إسحاق: مقدمة كذا أنا يا دنيا
13- حامد، أحمد: السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة، ص32
14- ينظر، درّاج، فيصل: القضية الفلسطينية وأحلام المثقف الراقي، يوميات السكاكيني، الكتاب الأول، ص14
15- السكاكيني: كذا أنا يا دنيا، ص48
16- حامد، أحمد: السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة، ص59
17- ينظر السكاكيني: يوميات السكاكيني، الكتاب الثاني، ص86
18- السكاكيني: كذا أنا يا دنيا، ص160
19- السكاكيني: السابق، ص232

20- السكاكيني: يوميات السكاكيني، تحرير أكرم مسلم، رام الله سـنة 2003، ص94

21- السكاكيني: كذا أنا يا دنيا، ص189

22- السكاكيني: يوميات السكاكيني، الكتاب الثالث، ص200

23- ينظر محنة السكاكيني مع الشاعر الصهيوني ألتـرليفين فـي يوميـات السكاكيني، الكتاب الثاني، ص22

24- السكاكيني: يوميات السكاكيني، الكتاب الثالث، ص94

25- السكاكيني: السابق، الكتاب الثاني، ص85، والسابق، ص58–59

26- حامد، أحمد: السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة، ص62

27- شعث، شوقي: القدس الشريف، منشورات المنظمـة الإسـلامية للتربيـة والعلوم والثقافة (ايسيسكو)، ص193

28-السكاكيني: يوميات السكاكيني، الكتاب الأول، ص288، 300

29- السكاكيني: السابق، ص288، (هامش)

30-السكاكيني: السابق، ص300

31-السكاكيني: السابق، ص388

32-السكاكيني: السابق، ص336

33-السكاكيني: السابق، الكتاب الثالث، ص143

34-السكاكيني: السابق، ص170

35-السكاكيني: ما تيسّر،ج1، ص85

36-السكاكيني: كذا أنا يا دنيا، ص48

37-السكاكيني: يوميات السكاكيني، الكتاب الثالث، ص173

38-السكاكيني: السابق، ص177

39-شعث، شوقي: تاريخ القدس، ص189

40-حامد، أحمد: السكاكيني في النهضة الفكرية المعاصرة، ص67

41-السكاكيني: يوميات السكاكيني، الكتاب الثاني، ص 19(المقدمة)
42-السكاكيني: السابق، ص61
43-السكاكيني: السابق، الكتاب الأول، ص23(المقدمة)
44-السكاكيني: السابق، الكتاب الثالث، ص 214
45-السكاكيني: السابق، ص19(المقدمة)
46-السكاكيني: السابق، ص134
47-السكاكيني: كذا أنا يا دنيا، ص392
48-السكاكيني: السابق، ص321